

## جيل لاحق... ذاكرة الماضي العثماني

### في السيرة الذاتية اليمنية المعاصرة\*

Une génération après... La mémoire  
du passé ottoman dans l'autobiographie  
yéménite contemporaine

جولييت أونفو

ترجمة: د. بشير زندال\*

في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، وصف عبد الملك بن علي المفتي -شاعر يمني معروف ينحدر من عائلة عريقة من مدينة إب في قلب اليمن في مقدمة ديوانه في لمحة عن التاريخ المحلي- فترة الاستعمار العثماني لليمن ١٨٧٢-١٩١٨ كعصر ذهبي حقيقي. كانت إب في ذلك العصر ((مكاناً مهماً حيث يتواجد أناس أتوا من كل مناطق اليمن ليستمتعوا بالمزايا وليكونوا فيها نوادي للنقاشات وللأمسيات الشعرية والعلمية)). وكان تشجيع العثمانيين للثقافة - بالإضافة إلى جهودهم لتثبيت الأمن والاستقرار في هذه المنطقة - قد سمح للأدباء والشعراء والعلماء والمحدثين - المرتبطين بالحدثة - بالعثور على (طرق التقدم). وفي هذا الوسط من الأعيان المحليين الذين توغلوا في الإدارة العثمانية وجدت الحركة الثورية - التي أطاحت بنظام الأئمة المتوكليين عام ١٩٦٢ - زعمائها.

بلا شك فإن ذكر هذه الفترة من السلطة العثمانية - التي كانت أفضل بألف مرة من الاستقلال المتوكلي في شتى مناحي الحياة - قد كان هامشياً جداً في الكتابات التاريخية اليمنية. اندرجت هذه الكتابات ضمن كتابات خارجية حديثة نسبياً تبين أهمية الاستمرارية التعليمية والقضائية والإدارية منذ الفترة العثمانية إلى الفترة الجمهورية. وقد نجحت تأثيرات القومية العربية على حركة الإصلاح في القيام بالثورة عام ١٩٦٢، كما كانت وحدة اليمن الشمالي مع الجنوبي عام ١٩٩٠ هي الإطار التي تم كتابة تاريخ اليمن المعاصر بداخله. هذا التاريخ الذي يحمل جانباً إيجابياً على التاريخ المحلي، والمناطق، لاسيما حينما

\*Une génération après... La mémoire du passé ottoman Honvault, « Juliette  
،Chroniques yéménites » dans l'autobiographie yéménite contemporaine  
١٥ | ٢٠٠٨، ٣٥-٥٤.

\* أستاذ اللغة الفرنسية - كلية الآداب - جامعة نمار.

مال إلى الإشارة إلى الفروق المذهبية في البلد كما هي الحالة لدى عبد الملك المفتي.

استفاد كثيراً الإمام يحيى - الذي أستلم السلطة بدعم من الجماعات الزيدية في الشمال عام ١٩٠٤ قبل أن يستولي على بقية أجزاء اليمن بعد انسحاب الأتراك من اليمن عام ١٩١٨ - من نظرة القوميين العرب في الخارج إلى المعارك التي خاضها ضد الأتراك في بداية حكمه. حيث بدا كما لو أنه حامي حمى مهد الهوية العربية واستطاع استثمار هذه النظرة إلى أن فرض حكماً تسلطياً ومتعنناً ضد كل تحديث للبلد.

كان لدى هذه السياسة الموجهة نحو تثبيت استقلال البلد معارضين. وقد فتحت هذه الحركة الإصلاحية الطريق (لحركة اليمنيين الأحرار) التي نشأت حركتهم عام ١٩٣٠ والتي أشار إليها عبد الملك بن علي المفتي بأنها سلبية هذا الوسط من العلماء التي كان العثمانيون يشجعونه في إب. كانت هذه الحركة تأمل انضمام الكثير من القوميين العرب كي تنتشارك معهم مراجع فكرية مشتركة. لكن بسبب المخالطة الإيديولوجية، وتوقعاتها، لم تستطع أبداً الحركة القومية الثورية المنحدرة من (الأحرار) الإفلات من النظرة التي حملها القوميون العرب عن الماضي العثماني، وربما ذلك لخطر إخفاء أصولهم. إن تدخل عبد الناصر في ثورة ١٩٦٢ وتأسيس الجمهورية قد عمم أسطورة (المقاومة الوطنية) لليمنيين ضد الإمبراطورية العثمانية التي أتهمت بأنها سبب تأخر البلدان الإسلامية بالمقارنة مع البلدان الغربية، وقام بتفنيدها بعض الإصلاحيين اليمنيين القدامى. وبدون أخذ اعتبار كبير لصراع (الأحرار) من أجل تطور التعليم في عصر الإمام يحيى - الذي سارع فور مغادرة العثمانيين لإغلاق المدارس القليلة التي كانوا قد افتتحوها - فقد رأى القوميون العرب المتورطون في تأسيس الجمهورية أن لهم دور لا يقل أهمية عن دور الإمام. وهكذا عُرف الإمام بأنه (صاحب الفضل في استقلال اليمن) منذ سبع سنوات قبل الانسحاب العثماني. ما زال هذا التأويل للماضي مسيطرًا حتى يومنا هذا. كيف كان باستطاعة المناضلين والثوريين اليمنيين المنضمين لبناء الدولة الحديثة العربية أن لا يأخذوا بحسبانهم هذه الذكرى المستخدمة للاحتلال العثماني؟

إن حكايات السيرة الذاتية للفاعلين السياسيين و/أو لمناضلي الإصلاح أو ثورة ١٩٦٢ التي كُتبت في نهاية الاحتلال العثماني أو في السنوات التي تلتها قد سمحت بالأخذ في الحسبان الضغوط التي تقوم بها الإيديولوجية القومية العربية على ذكريات مؤلفيها. لا يقترح الثمانية المؤلفون للسيرة الذاتية الذين

أقدمهم هنا إعادة كتابة التاريخ. فكلهم يستجيبون لحاجة إظهار – بل وتسجيل – تجربتهم الخالصة في الحركة القومية العربية لليمن المعاصر. وكما توقعناها فإنه تقريبا كل هذه الحكايات لا تروي إلا ذاكرة هشة للماضي العثماني، حتى وإن كان آبائهم قد حافظوا على علاقات – أحيانا ما تكون – قوية مع العثمانيين. وقد حرصنا هنا على إعادة فحواها إليها.

يقتمر موضوع هذه المقالة على عرض كيف أن كتابة السيرة الذاتية – مع فراغاتها وامتلاءاتها – وليس فقط عن طريق ترتيب الحكاية لكن أيضا بترتيب اختيارات السرد، تسمح بتجاوز التابو الإيديولوجي بغية الإحياء بل وتأكيد رسوخ بنية التأثير العثماني على الحركة القومية اليمنية.

## العثمانيون البعيدون.. فقدان الذاكرة العائلية

### بقايا الذاكرة

لا تدعي أي حكاية من التي قدمت هنا بأنها تعرض هوية شخصية. ما سيلي يتكون بداية من هوية سردية كالتي عرضها بشكل رائع بول ريكور في سيرته الذاتية. لقد عانت الشخصية – التي تتميز بحبكة جيدة في تاريخ مروى في حكايتها السياسية أو النضالية في الحركة القومية – من الضغط جراء تميزها بالتماسك وبوحدة قصة حياتها. ومن الطبيعي هنا أن تقوم كل شخصية مركبة في الحكايات التي تهمننا على توجيه تاريخ طفولتها نحو مستقبلها الخالص في النضال من أجل تحديث اليمن.

سمح مسار الآباء بتعيين مكان وبيئة ولادة الأولاد، مسلك يُجبر على ذكره المؤلف حين الكتابة عن نفسه، وهو ما يسمح بوضع أول عناصر التميز. ولأن الحضور العثماني كان قريبا وملموساً جداً، كان من الصعب على المؤلفين أن لا يستحضروه: كلهم ولدوا في أماكن كانت في زمن آبائهم على تواصل مع السلطة العثمانية (شمال صنعاء التي تسيطر عليه القبائل، وسلطنة لحج) أو على الأغلب تخضع مباشرة لإدارتهم (صنعاء، إب، تعز وضواحيها). إن الاستدعاء المقتضب لهذا الحضور الواضح حتى في البيئة العائلية التي نادراً ما تكون واضحة أو حتى إن علق عليها المؤلفون قد عمل على إنشاء مادة فظة وهي التي اخترنا أن نقدمها كما هي بغية الإشارة إلى الجانب المحدد، بل والحكائي للمراجع عن العثمانيين الذي تعرضه هذه الحكايات.

ولد كاتبان فقط من كتاب المذكرات في عصر الاحتلال العثماني،  
العزي صالح السنيديار (١٩٠١ - ؟؟؟؟) و أحمد محمد نعمان (١٩٠٩ -  
١٩٩٦).

أولهما عضو مجهول في حركة الأحرار وهو سليل عائلة كبيرة في  
صنعاء. غير أنه كان لديه مساراً مميز في حياته. ذكر في مذكراته أنه أخوه  
البكر، عبد الله محمد السنيديار، كان موظفاً لدى الأتراك وكان منتدباً في  
إسطنبول. وهو أيضاً بدأ بمتابعة تعليم حديث في مدرستين تركيتين، لكن وفاة  
والده ثم تبعه وفاة والدته حينما لم يكن قد تجاوز العاشرة قد غيرا مجرى حياته.  
فقد وُضِع في وصاية (أحد المتعصبين الذي يرفضون التعليم القادم من خارج  
البلاد). سيتحسر لزمان طويل من لعبة القدر معه ولاسيما أنه كان بإمكانه أن  
يتابع دراسته في (المدارس العثمانية - المكاتب). في هذه الأثناء وبفضل أخيه،  
استطاع التخلص من وصيه ومتابعة دراسته على يد أستاذ وصفه بأنه (مثال  
للكرم والنشاط والرحمة) وأصبح خياطاً بسيطاً في صنعاء.

أما الكاتب الثاني، أحمد محمد نعمان، فكان أحد الاثنتين الرائعين اللذين  
أسسا حركة اليمنيين الأحرار. سيرته الذاتية تمثل حالة استثنائية في هذه  
المدونة، لأنها كتبت أثناء حوارات مسجلة أجراها طلاب من الجامعة الأمريكية  
في بيروت في إطار برنامج تاريخ شفوي. وقد أديرت هذه الحوارات بما فيه  
الكفاية من الحزم بحيث أنها لم تترك لأحمد محمد نعمان الوقت اللازم كي  
يرتب حكايته. ولنلاحظ أنه وعلى العكس من المؤلفين الآخرين الذين كتبوا  
مذكراتهم في نهاية حياتهم (مثلما يعمل به في هذا النوع من الكتابة) فقد أجرى  
نعمان هذه الحوارات عام ١٩٦٩ بينما لم تنطفئ حياته السياسية وتأثيره إلا قبل  
سنوات من مماته في ١٩٩٦.

سينادونه فيما بعد (الأستاذ)، كونه درس في أول مدرسه حديثه افتتحت  
عام ١٩٣١، كان ينحدر من الطبقة الارستقراطية المحلية (شيوخ قضاء  
الحجرية) منطقة في وسط اليمن. ذكر في مذكراته أن الرجل (الأكثر شهرة) في  
عائلته هو عمه (أحمد نعمان بيه، لأنه كان قد ذهب إلى اسطنبول مع "مشائخ"  
آخرين لمقابله السلطان رشاد الذي منحه لقب "بيه"). وقد عين هذا العم قائمقام  
في الحجرية. سيتذكر أحمد محمد نعمان عن بدايات طفولته، على الأخص بأن  
(عائلته كانت تعيش حياة بسيطة)، وبأنه (ما كان هناك فرق بين هؤلاء  
وهؤلاء). إن فقر التعليم والصدمات وسوء التغذية قد ذكرت بتفاصيل دقيقة في  
حكايته. مع ذلك إن كان الكاتب لم ينقب كثيراً عن أهمية الروابط التي كانت  
تجمع عائلته بالعثمانيين، فيجب عليه معرفه أنه بعد أن أمضى ثلاث سنوات

لدى الفقيه فذلك لأنه كان ابن شيخ وسليل عائلة معروفة بقربها من الحكومة العثمانية التي أرسلته إلى (المكتب ترك). وهكذا تعلم فيها الكتابة على يد (خوجة) وهو لقب ينادى به الأجانب ويعني سيد. وكما كان يقصد أحمد محمد نعمان حين أشار إلى التأثير الضعيف الذي تركته العلاقات العثمانية على بدايات مشواره، فإن الوصف الذي ذكره عن تجربته في النظام التعليمي العثماني قد حط من قيمتها على وجه الخصوص. إن معاملة الفقيه القاسية له قد استبدلت بمعاملة الخوجة القاسية. وقد استخدم هذا الأخير عقاب (الفلكة)، وهي التي ستلخص رمزيا في حكايته كل ما سيتذكره عن الحضور العثماني في اليمن: (أنت إلينا الحضارة التركية عن طريق الفلكة). سيعترف نعمان فيما بعد بأنه قد نجح (في تعلم الكتابة لدى الخوجة أفندي)، وأيضاً (في تعلم الحساب والجمع والضرب والطرح والقسمة لأن الأتراك يحفظون هذا عن ظهر قلب). ولكن رغم أنه (لولا هذا الأمر) لما تعلم (الشيء الكثير) إلا أنه ما كان لهذا التعليم من فائدة كبيرة ترجى منه.

إن المؤلفين الذين ولدوا بعد عودة العثمانيين يُكوّنون الجزء الأكبر من المدونة. إلا أن واحداً فقط منهم (القاضي عبد الكريم بن أحمد الأنسي) قد شارك في الحركة الإصلاحية التي أفضت إلى الثورة الأولى (الدستورية) عام ١٩٤٨ التي قتل فيها الإمام يحيى. أكثر الآخرين كانوا شخصيات ارتبطت بثورة ١٩٥٥ التي فشلت وبثورة ١٩٦٢.

من بين هؤلاء الكتاب ينحدر اثنين من عائلات ارستقراطية قبلية: الشيخ سنان أبو لحوم (١٩٢٢ - ؟؟؟) والشيخ عبد الله الأحمر (١٩٣٣ - ٢٠٠٧). كان الأول يدير أكبر تجمع قبلي في بكيل وهو أيضا سليل عائلة مشيخ كبيرة يرجع نسبها إلى القرن الخامس عشر، في منطقة نهم، شمال صنعاء. لا يوجد في حكايته العائلية ولا حكاية شبابه أي ذكر للعثمانيين. سيعرف القارئ أنه في هذه الفترة عام ١٩١١ وبعد صراع عائلي طويل سكنت أسرة سنان في إب. كما لم يذكر صلح دعان الذي حصل في نفس السنة، ولا نعلم إن كان له خطوط تلاقي مع هذا المنفى في إب.

أما الشيخ الأحمر فكان حتى وفاته في ٢٠٠٧ شيخ مشايخ حاشد ورئيس التجمع اليمني للإصلاح (حزب إسلامي معتدل) ورئيس مجلس النواب. هو الآخر سليل عائلة مشيخ كبيرة، كان الصديق الحميم للشخصية الرمزية الثانية للأحرار، محمد محمود الزبيري، كما يمثل الشخصية المحترفة التي استطاعت التوفيق بين القبيلة والسلطة فيما يخص العصر الجمهوري.

إنها الحكاية التي أظهرت التألق السياسي لأسلافه المكتسبة من معارضتهم للأئمة القاسميين كما احتوت على استحضارات عن العثمانيين. وقد استهل الحكاية بالصراع الناشئ في نهاية القرن السابع عشر بين علي بن قاسم الأحمر والأمام القاسمي في ذلك العصر بسبب الإدارة السيئة لهذا الأخير. ويشير إلى بداية الصراع (بين آل الأحمر والأئمة) الذي لم يشهد إلا فترات وجيزة كهذه. وبحسب الكاتب فإن الهدنة ما كانت لتقوم إلا من أجل الدفاع عن البلاد ضد (الاحتلال الأجنبي) الذي كان (تركي) أو ضد جيوش كانت قبلهم يتم قيادتها من قبيل (ملوك كانوا يعيشون في مناطق أخرى من اليمن). وهكذا، في القرن التاسع عشر، فإن جد عبدا لله الأحمر، ناصر بن مبخوت، قد انضم إلى الإمام الثاني المنصور لمقاومة (الغزوات التركية). لقد كانت هذه المشاركة - فيما يشبه الحرب الوطنية - واضحة حينما روى المؤلف أن الأتراك حاولوا عبثاً استقطاب ناصر بن مبخوت إليهم؛ تضم المذكرات في ملحقاتها نسخة من رسالة تحتوي على عرضهم له بالانضمام إلى السلطة العثمانية. سببت معاهدة السلام التي وقعها الإمام يحيى في دعان عام ١٩١١ توترات جديدة بين الجانبين: سيتلقى ناصر بن مبخوت تحول الإمام يحيى تلقياً سيئاً، لقد تقلد مناصب كثيرة في الصراع ضد العثمانيين باسم الدين والخلافة الإسلامية. قلما نجد شيئاً آخرأ في حكاية الشيخ عبدا لله الأحمر يتعلق بالعثمانيين، الذين تحولوا إلى ادوار ثانوية أعطت قيمة بسيطة للشرف القبلي على حساب المسائل الدينية.

ينتمي الثلاثة الكتاب اللاحقون لمجموعة القوميين العرب. قدم عبد الله جزيلان (١٩١٧ - ١٩٩٤) في كتابه (من ذكريات الطفولة) للقراء سيرة ذاتية ثانية. ففي كتابه السابق (التاريخ السري للثورة اليمنية) - نُشر عام ١٩٧٧ - إحدى أولى الكتابات، كان قد حكى عن دوره الخالص في ثورة ١٩٦٢ واختياره القتال في صفوف القوات المصرية. عُين نائباً لرئيس الوزراء عام ١٩٦٢، لكنه أختار مصر كمنفى بعد سقوط السلالة في نوفمبر ١٩٦٧. في هذا الكتاب الثاني الذي نشر في القاهرة عام ١٩٨٤، تبدأ الحكاية التي كتبها عن تاريخه الشخصي بحكاية جده نجيب حمود جزيلان وأبيه حمزة. فقد عمل الاثنان (مع الأتراك) في صنعاء. وكان التركيز منصباً حول خاصية كونهما فارسين ماهرين، وحول عشقهما المشترك للخيل. قادهما هذا إلى العمل مع العثمانيين في مجال التسليح المتخصص لسلاح الفرسان. بعد عام ١٩١٨، انضم والد المؤلف إلى جيش الإمام. ظهر الاستدعاء الثاني للعثمانيين في الذكريات الأليمة للحرب ضد القوات السعودية التي شارك بها والده. وستعي هذه الذكريات التحدي الذي كان يمثل هذه الحرب بالنسبة لليمنيين: (سيقاتلون ببنادق عثمانية قديمة تسمى (ماوزر)) وفي ظل ظروف صعبة بينما كان

المقاتلون في (القوات السعودية) يمتلكون جمالاً سريعة، لا بل سيارات و (بنادق إنجليزية ٣٠٣ حديثة جداً).

ولد الكاتب الثاني في هذه المجموعة، حسين علي الحبشي، عام ١٩٢٨ في الشيخ عثمان - ضاحية في عدن أصبحت ضمن المدينة - وهو حاصل على دبلومات من جامعات القاهرة ولندن وستانفورد، وقد شغل العديد من المناصب الحكومية. روى في مذكراته بأن والده قد تعامل بالتجارة أيضا مع العثمانيين. أصوله من منطقة إب (العدين وحبيش)، تركها ليلتحق بوالده إثر صراع على أراض زراعية وسكن معه في سلطنة لحج التي كانت تحت الحماية البريطانية. هنا تاجر مع العثمانيين الذين كانوا يقطنون في الحدود مع سلطنة لحج في (التزويد بالخرقان والدواجن والبيض من الشمال). ويبدو أن هذا النشاط قد انتهى مع الحرب العالمية الأولى لأنه قد استقر في الشيخ عثمان حيث عمل في بيع السمك.

أما الكاتب الثالث، محمد عبد العزيز سلام، وزير الخارجية السابق (١٩٦٤-١٩٦٥) مدير مكتب رئيس الوزراء (١٩٧١)، دبلوماسيا في السنوات ١٩٨٠ - ١٩٩٠. ولد في تعز عام ١٩٣٥، كان ابناً لقاضي، سكرتير المحكمة العليا للواء. لم يوضح مطلقاً ما كان بإمكان وظيفة والده أن تمثل بالنسبة للإدارة العثمانية. مع ذلك لقد كتب عن ذكريات والده بأنه كان يُلبس أطفاله (أحزمة صغيرة لامعة، وطرابيش ناعمة تركية من الصوف). لقد نشر صورة زينت هذه المذكرات - إن لم تحل هذه الصورة محل المذكرات - في ملاحق الكتاب، كان عمره حينذاك ٣ سنوات، وكان بجوار والده وبعض إخوانه وأقرباءه. كان جالسا على الأرض، وكان الأربعة الأطفال الأصغر منه يضعون على رؤوسهم طرابيش عثمانية.

كان القاضي عبد الكريم بن أحمد الأنسي - من مدينة إب - معارضاً للنظام الإمامي في السنوات التي تلت اغتيال الإمام يحيى عام ١٩٤٨، ومدافعا كبيرا عن القومية العربية، كما كان شاعرا معروفاً. كان ديوانه المتميز الذي كتبت قصائده في السنوات ١٩٤٠ و ١٩٦٠ هو ما خدمه جزئياً كقاعدة للعودة إلى الماضي وكطريقة للتوضيح ولوضع القصائد في سياقها. الحقيقة أن الكتاب ليس كتاب سيرة ذاتية خالصة، لكنه مع ذلك استدعى ذكريات والده الذي أهدى إليه الكتاب. وحين قرر نشر ديوانه فذلك - كما أشار في مقدمة الديوان - كي يعرف القارئ أن (الثورات لا تولد من تلقاء نفسها) و(ما كان لأي ثورة أن ترى النور وتنجح دون أن تكون مرتبطة بالثوار السابقين). إنه اعتراف بالتقدير (للأحرار) الذين عارضوا الإمام منذ الثلاثينيات والذي يميل التاريخ الرسمي -

الذي ظهر بعد ثورة ١٩٦٢ - إلى نسيانهم. في الحقيقة، ارتقى بوضوح بمكانتهم إلى الآباء الروحيين الذين سمحوا بوضع حد للاستبداد الإمامي. وفي هذا الإطار، وخصوصاً ما يخصه هو، لم يخطئ حينما أشار إلى الدور الفاصل الذي استطاع والده - أحمد بن علي بن صالح الأنسي (١٨٧٥ - ١٩٦٨) - أن يلعبه. وهنا أيضاً، لم يظهر أي رابط بالعثمانيين، أو على الأقل، لم توجد روابط مباشرة.

فيما يخص المؤلفين، من المهم التنبيه إلى أنه لم يكن الحضور العثماني موضعاً في ولاداتهم. لقد تم اختزاله، على الأقل، بعنصر صغير في الإطار العائلي وما يحيطه. بالطبع لم يُحفظ الماضي إلا بمقدار ما سيعطي معنى لتجربة المشاركة في الصراع الوطني من أجل تطوير اليمن، ومن أجل انفتاحها على العالم، لاسيما العالم العربي.

### ضرورة التميز الثقافي: مخطط الأدب القومي العربي.

مهما كان نصيب المؤلفين المولودين إبان الاحتلال العثماني أو نصيب اللاحقين، فإن ما يدهشنا، في مجموع كتابة السيرة الذاتية، هو المقدرة على الانصهار مع عيوب نقل الذكريات من آباءهم- بل وحتى إخوانهم البكر، كما في حالة عبد الكريم بن أحمد الأنسي.

إن المعرفة التي تلقاها حسين علي الحبيشي عن والده تشهد على ذلك. لقد تركته تحقيقاته حول ماضي والده متحيراً. فأن يكون والده قد ترك إبه للذهاب إلى لحج ثم إلى الشيخ عثمان، فذلك يعني أن خط السير هذا يقتضي منه أن يتساءل - من وجهة نظر تاريخية - عن فترة اضطرابات إنسانية كبيرة. ولكن لنقص المعلومات الدقيقة، فهو يدعوا الباحثين إلى البحث في هذا الموضوع. بالنسبة للتعاليم الدينية التي كان يحافظ عليها الوالد، فإنه عن طريق الملاحظة الوحيدة لتصرفات والده قد سعى إلى عملية التقمص: (كان والدي قد حافظ على التعاليم الزيدية المتشعبة التي أتت من الشمال لأنني أتذكر أنه كان يحب أكالات الحلبة والفول وحقيقة قد استمررت في التفكير في أنه كان يُدعى علي وبأنه تزوج بأمي التي تدعى فاطمة و أن أخي البكر اسمه الحسن وأعطاني اسم الحسين). تعلمنا أن حسين علي الحبيشي تعلم في إطار المذهب الشافعي. وتوضح شكوكه فيما يخص أصوله المذهبية لأسرته بأن تغيير المذهب يعتبر موضوعاً بالغ الأهمية لذلك لم يناقش ذلك بوضوح في العائلة.



هناك عنصر آخر يستوقف التحليل. تكشف كل حكاية من هذه الحكايات أهمية الإشارة إلى فجوة - بحسب النظام الثقافي - في مسيرة حياة كاتبها. ينتمي كل الآباء إلى نظام قديم لم يستطيعوا أبداً تقديم أي اتهام له وعرف الأبناء كيفية فضحه بغية مقارنته بشكل أفضل. يوضح أحمد محمد نعمان بأن الآباء في فترة طفولته كانوا يبررون معاملة المدرسين القاسية للأطفال: (اللحم والجلد تخص الفقيه) كانوا يقولون ذلك. من جهته، كان يتوجب على حسين علي الحبوشي حين كان طفلاً المقاومة ضد والده لمتابعة تعليمه وتحدي موانع لا تنتهي كانت تواجه القراءة.

حاول بعض المؤلفين التبرير لأبائهم بنقص التعليم وبمعارفهم المتواضعة. لم يظهر هذا التبرير إلا في جملة موارد لدى أحمد محمد نعمان، لكنه كان أكثر وضوحاً لدى الآخرين. وهكذا فإن الحبوشي يؤكد بأنه كان قد توجب عليه أن يوضح لإخوانه الذين عانوا من مزاج والدهم السريع الغضب، لرفضه للتعليم، بأنه لم يكن إلا ضحية الجهل الثقافي في عصره. وفي نفس الحالة، هل كان الشيخ الأحمر يريد أن يوحي بأن أجداده المتطوعين ضد الأتراك كانوا قد استطاعوا الامتزاز بهم وربما افتخروا بهذه العلاقة التي تجمع شمل كل المسلمين؟ ألم تكن العزلة وجهل ما يدور في العالم هي التي تعمل على الإغلاق عليهم؟: بينما في نهاية توقيع صلح دعان ١٩١١، ادعى الإمام يحيى فجأة بأن الأتراك كانوا (إخوة مسلمين) للشعب اليمني، (واتضح بأن الناس لم يعلموا بما يحدث في تركيا ولا كانوا يعرفون الأعداء الذين يحيطون بالخلافة التي كان مركزها اسطنبول لأنه ما كان يوجد في ذلك العصر وسائل للمعلومات التي ربما كان باستطاعتها السماح للناس بمعرفة ما كان يجري في العالم).

في نهاية مذكراته، يشير عبد الله جزيلان إلى اتساع الهوة بين الأجيال. وقد نظمها على شكل (حوار) مع والده. لقد تحول إلى واضع ساذج للأسئلة، ثم يشرح لأبيه عن علم بأنه (رغم اجتياح المغول والصليبيين والقوات التركية والاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي، فإن العرب ظلوا عرباً في لغتهم وقلوبهم. لقد اكتشف الشعب العربي حقيقة السلطة العثمانية وقائلوهم رغم الحيلة التي استخدموها ضدهم تحت غطاء الخلافة الإسلامية). هكذا تحول عبد الله جزيلان إلى معلم لوالده الذي تنقصه المعرفة ذلك بغية كتابة بعض السطور عن ماضي بلده. وجدنا نفس الحالة لدى حسين علي الحبوشي. ففي طفولته، كان يجب على طلب أبيه بأن يقرأ عليه ما قرأ. فقرأ له (سيرة عنتره) وهي ملحمة رومانسية لفارس في بدايات الإسلام، منتشرة بقوة في البلاد العربية منذ

الثلاثينيات، أشهرت هذا البطل الذي أصبح ممثل الشخصية العربية وبطل الإسلام. وعلى قاعدة هذه القراءات، يبدو أن الوالد أنفتح على القومية العربية: (حساس ناحية الوطن العربي، فقد كان يعتز بالأبطال التي تمثلهم الشخصيات الأدبية مثل عنتره [...]) أو أولئك الذين كانوا معروفين، بل وحتى هتلر. أما فيما يخص فلسطين والقدس، كان يقول: يا بني! سيأتي اليوم الذي يسترد فيه العرب القدس...).

لا يمكن توضيح الحالة الأستاذية لهؤلاء المؤلفين بدون تذكر المشروع – الذي استحوذ عليه (العرب المعتزون بقوميتهم) – عبر حكايتهم السيرذاتية في العشرينيات والأربعينيات، والتي كانت وبدون أدنى شك مراجعاً للعديد من القوميين العرب. إن حكايات جورجي زيدان، محمد كرد علي، فخري البارودي، احمد الشدياق، فارس الخوري، خالد العزم، وبالمثل العديد من الفاعلين الآخرين في ولادة ضمير جديد سياسي وفكري نابع من النهضة، قد أدت إلى تشكيل بناء كتابة التاريخ لأمة عربية حديثة تعيش على الهامش. إن المؤلفين الذين درسنا أعمالهم هنا يشاركون هؤلاء الناس (جيل ١٩٠٨) كمرجعية (للثورة الرائعة للكلمات) التي سببها الانقلاب في تركيا عام ١٩٠٨، نفس الحاجة إلى تمييز مسيرة حياتهم في مسيرة تكوين الحكومة الحديثة. وأخذوا – مثلهم – على عاتقهم الإشارة إلى هذه المرحلة التأسيسية لتجربة عالم التقاليد، المتشبهة بحالة من الخمول، والتي نجحوا في الخروج منها بمدى تميزهم.

## العودة اللامسيطر عليها إلى ذاكرة مبتورة و مفككة.

### علامات... رذالات الحكاية

في هذه الأثناء إن الانتباه المنصب على استدعاءات الحضور العثماني يسمح بتحرر إشارات لتاريخ يصعب وصفه، بل ومضغوط. وبالرغم من مجهودهم من أجل تنظيم (حبكة) لتاريخهم الشخصي، إلا أن مؤلفي هذه المدونة قد سمحوا بإفلات عناصر السياق العثماني. ربما كان هذا السياق أكثر حسماً مما كان المؤلفون يريدون السماح به.

ربما لا يثير المظهر الحكائي لبعض الإشارات انتباه القارئ. فقد أشار حسين علي الحبوشي – أثناء مروره البسيط المكرس على الحرب العالمية الأولى في مذكراته – إلى أنه على سبيل المثال أن العثمانيين قد (وصلوا إلى الشيخ عثمان بفضل سكان المدينة). إن ذلك يعني تكريماً لذكرى المشاركة

المبكرة للسكان المحليين في المقاومة ضد الاحتلال البريطاني في جنوب اليمن. لكن الموضوع حساس. تجنب المؤلف إثبات أن السكان كانوا مؤيدين للعثمانيين، أو كانوا يحتفظون بعلاقات متميزة مع العثمانيين. لم يعلق على هذه الواقعة. إلا أن القارئ سيتعرض لإغواء فرضية أن والد حسين علي الحبيشي الذي تراجع إلى الشيخ عثمان في نفس العصر قد تابع للمصلحة تقدم العثمانيين نحو الجنوب.

لقد فُضِح الصمت الثقيل لسان أبو لحوم في مواجهة الحضور العثماني عن طريق صورة ملحقة في مذكراته. إننا نرى فيها شيوخ قبيلة جالسين معا (محمد ناصر باشا، الشيخ محمد عبد السلام) وموظفين ومدراء عثمانيين (سعيد باشا، محمد نديم الذي يلبس طربوش). لم يرافق هذه الصورة أي تعليق في الحكاية والقارئ يعاني من أجل فهم إلى ماذا تشير هذه الصورة. لكن الاحتفاظ بصورة كهذه – نتصور كيف أنها حفظت بحرص شديد لدى الأسرة منذ بداية القرن العشرين – يتحدث عن نفسه. إن هذه الصورة تحدد مكان آباء سنان أبو لحوم في حادثة غير منتظرة كما في الصورة. يخدم الحضور الوحيد لهذه الصورة العلامات الزمنية التي اقترحها جيل المؤلف: ألا تدعونا هذه الصورة إلى التفكير في أن أول من مروا نحو الحادثة هم هؤلاء الآباء الذين كان لديهم جانب مرتبط مع العالم الحديث الذي يقدمه العثمانيون؟

عنصر آخر حكائي، الطربوش الناعم الذي كان يلبسه محمد عبد العزيز سلام عندما كان طفلاً. لم يصل المؤلف إلى درجة انهدام فنتة الذكريات. في الحقيقة، كان يغمره الحنين حينما روى أن والده كان فخوراً بأن أطفاله يدرسون لدى *الفتية* وبأنه لأجل هذا كان يستمتع بأن يلبسهم ملابسهم. يسمح لنا سلوك الوالد بإعطاء فكرة عن المكانة التي كانت تتمتع بها – في ثقافة هذه المنطقة الصغيرة – صورة (العثماني): حقيقة فإن إلباسه أطفاله لطرابيش إنما ينم عن بحثه لبعض التميز – بالتأكيد التميز الاجتماعي – لكن أيضاً التميز الثقافي. كان الطربوش – المرتبط بالتعليم – يكشف محاولة البحث عن بعض الحادثة، وكان يمثل إسقاطاً إيجابياً عن المستقبل. إنه يوحي أيضاً بأنه حتى الثلاثينيات من القرن العشرين كان بإمكان صورة (العثماني) أن تكون نموذج.

### المواربة الغير متوقعة للحكاية

في حكايات أخرى، تكون الإشارات بالحضور العثماني – ربما كان بشكل أقل حكائية – موحية بمواربة السرد ومصادفاته.

عند عبد الله جزيلان الذي كان والده (حمزة) وجده يعملان لدى الأتراك فإن حكاية الأماكن التي سكنها في طفولته تغني عن عناصر إضافية إلى هذه العلاقة. تسمح هذه الحكاية في الحقيقة بفهم غير مباشر بأن رحيل الأتراك بالنسبة للعائلة كان مرادفاً لبعض الانحطاط. فبدون أن يذكر عبد الله جزيلان أي تعليق عن علاقة آباءه بالجيش العثماني إلا أننا ندرك أن ذلك كان مصدراً للسعادة: كان الوالد والجد يمتلكان منزلاً في صنعاء، في حي الفليحي، ليس ببعيد عن حي العثمانيين ببير العزب، وأخيراً في الحي السكني الروضة، خارج المدينة. تزوج حمزة كما والده من امرأة تزوجت مسبقاً لأول مرة بالقاضي علي الوحيش، واعظ وإمام الجامع الكبير في صنعاء. يوضح هذا إلى أي مدى كان لدى حمزة علاقات مع الطبقات العليا في المجتمع في صنعاء، وكان قد وجد في التجارة والتفاهم مع العثمانيين أسباباً جيدة لمواصلة الازدهار. لكن بعد ذلك (ولسبب مجهول) ترك والداه صنعاء واتجهوا نحو تعز. وهنا ولد عبد الله جزيلان في بيت تقليدي (من طابقين، مبني من الحجارة العادية، ومزخرف بالطين). سيقول أنه يتذكر - في تنظيم سردي غريب - بأن والدته حكمت له بأن والده حمزة كان أيضاً مستشاراً للشيخ ناصر مبخوت الأحمر في زمن الأتراك قبل أن يدخل الإمام يحيى صنعاء. منذ ذلك الحين صار بإمكاننا التساؤل إن كانت هذه العلاقة مع الشيخ القبلي الكبير الذي تحالف مع الإمام يحيى لمقاتلة العثمانيين ليست هي التي أدت إلى جفاء علاقة حمزة مع العثمانيين وسببت سفره إلى تعز.

فضلاً عن ذلك، لن يفت عبد الله جزيلان الإشارة، فيما بعد في مذكراته، إلى أهمية الدور الذي لعبه (الأتراك) في إنشاء جيش حديث. سيذكر أيضاً الدور الذي لعبه راغب بك (متصرف عثماني قديم في الحديدة) تحت إدارة الإمام يحيى، عُين فيما بعد وزيراً للسياسة الخارجية، حيث يسلم جزيلان بأنه كان ماهراً في عمل الاتفاقيات التي أمنت لليمن معرفة دولية. يتابع أيضاً بقوله بأن (الأتراك والعرب الذين أتوا مع الحملة العثمانية تم وضعهم في إدارات الحكومة اليمنية في ذلك العصر). إن موضوع إعادة تأهيل الدور العثماني في تكوين الجيش والحكومة اليمنية - الذي فقد في الحكاية - قد نجا في (حبكة) الحكاية الشخصية. رغم ذلك لقد رافق هذا الموضوع اهتماماً منصباً من المؤلف لما يبديوا أنه كان (قدره) العسكري، ملتزماً بمسيرة وتجربة والده وجده.

سنكتشف نفس نوع الموارد في (مذكرات) عبد الكريم بن أحمد الأنسي، لكن هذه المرة أثار بوضوح أكثر المشاركة العثمانية في يقظة الضمائر

اليمنية. ولنتذكر أنه قد قدم ذكرياته في قالب قصائد كونت ديوانه. تسمح القصائد بفك التماسك في الحكاية وبإدماج عناصر الماضي(العثماني) بدون تجميدها في مناورة معقولة. في إحدى قصائده التي ألفت عام ١٩٤٩ ووجهت إلى الإمام يحيى، ظهرت الحرب ضد العثمانيين في جو جديد. كان قد كتب (ذبحنا الأتراك من أجل إرضائك...)، لكن حين انتهى الأمر، تركت أمرك (للحاشية...) ونفهم من هذا أنه في نهاية الأربعينيات كانت مسألة تقلب الأمير قد حلت محل القضية المشتركة في مواجهة التعبئة ضد العثمانيين. اعتبرت هذه الحرب كتضحية، وأصبحت فضلا عن ذلك غير ذات منفعة. لقد سمح إعادة نشر هذه القصيدة بإنعاش الذاكرة الهاربة للأربعينيات بدون المجازفة المباشرة للكاتب وجها لوجهة مع الماضي العثماني.

فيما بعد، لقد كان تقديمه لقصيدة رثائية لأخيه المتوفي عام ١٩٥٩، بعد سنوات من الصراع ضد الطغيان الإمامي هو ما قاده إلى استحضار الأتراك. يتذكر الأنسي في هذه اللحظة أنه كان قد التحق بالتعليم الابتدائي (المدرسة التركية) في إب. بينما يدعونا تعليم أخيه البكر إلى التفكير في أن حالة القاضي وروابط الوالد مع الأتراك - كما في حالة محمد أحمد نعمان - تدلنا على هذا التميز. لم ينتهز المؤلف فرصة الاسترسال في هذا الموضوع. من جهة أخرى، في مقدمة ديوانه، توحى براعة متوازية مع شخصية جيل والده بعلاقات قديمة يعجز عن التعبير عنها: (بدأت الحركة [المعارضة ضد الإمام يحيى] بالتحرك قبل عام ١٩٤٨ بعشر سنوات بحفنة من الرجال أمثال الشيخ حسن محمد الدعيس الذي عرف نظام الأتراك [كما والده]). لم تتأكد المشاركة الواضحة للعثمانيين. لكنه ألمح إلى ذلك فيما بعد، عن طريق إلغاء مناهج الإمام يحيى: فهو يوضح أن لسلطة الإمام قاعدتين جوهريتين. الأولى (انتشار الترويح لسيئات الأتراك، وتطور مدى خلاعتهم) الأخرى؛ (البارود والاختطافات). لقد خدم الترويح ضد الأتراك والنظام الاستبدادي الأعمى سياسة الإمام بنفس مستوى الحماسة الغير مبررة.

لقد كانت الطبيعة الممارسة الغير مسيطر عليها على المقابلة هي التي فاجأت أحمد محمد نعمان وأوقعته في شرك حكايته. في الحقيقة قادته إجابته على السؤال الذي وجه إليه في المقابلة: (أفلا تكلمنا عن علاقات اليمن الخارجية!) إلى رد الاعتبار عرضاً للماضي العثماني وإسهاماته: (كما تعلمون فإن اليمن عاشت معزولة عن ركب الحضارة وبعيدة عنها. عندما كانت اليمن منطقة عثمانية كانت العلاقات محدودة بمقدار ما كان لدى الإمبراطورية العثمانية من علاقات مع العالم. لكن عندما نالت استقلالها وأمتلك الإمام يحيى

سلطاته، فإنه ما كان لديه أدنى فكرة عما كان بإمكانه أن تكون الدولة الحديثة. لقد شيد نظاماً تقليدياً)

بالتأكيد فإن طبيعة السؤال المشكوك فيه المطروح على احمد محمد نعمان أثناء هذه المقابلة قد شوشت على الذاكرة التي بناها لنفسه الأستاذ أثناء وصفه لمسار حياته. فإن كانت العلاقات الخارجية لليمن تحت العثمانيين محدودة جداً فلماذا أعترض جهل الإمام يحيى بكلمة (لكن)؟ سَجَل الارتباك أكثر حينما أثار نعمان حضور – إلى جانب الإمام – (أناس كانوا قد عملوا مع الإمبراطورية العثمانية، وتلقوا قدراً معيناً من الثقافة)، أو (أترك كانوا قد بقوا في اليمن). من بينهم بالتأكيد نجد القاضي راغب الذائع الصيت. يعترف نعمان له بفضل إقناع الإمام بضرورة تنشيط العلاقات مع الخارج وبتنظيم العلاقات مع بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا. لكن أحمد محمد نعمان الذي لم يستطع ترك الإيديولوجية القومية العربية عام ١٩٦٩ كان يشعر بأنه مجبر علانية على إعادة تعريف طبيعة هذه (الثقافة) العثمانية. لقد وضح فعلاً بأن (الأترك كانوا يجندون أحياناً عرباً من الشام في جيشهم الذي وصل إلى هنا، كانوا يتكلمون التركية بطلاقة ويلبسون الملابس التركية. بقي بعضهم بغية تغيير رأي الإمام بأن اليمن ما كانت بحاجة إلى علاقات خارجية). وهكذا كانت المشاركة العثمانية المتتكرة مقدمة في شكل أكثر قبولاً.

يبدو كأن الماضي العثماني – الذي يصعب شرحه أثناء عملية كتابة التاريخ الوطني الذي يتزود بها مؤلفو المذكرات – يعيقهم بلا ريب في حكايتهم. لأنه لم يكن إلا عنصر ديكور عاشوا فيه هم أو آبائهم. إن جهل هؤلاء الأباء يوضع في عرض مختصر يتقاسمه الجميع. سيشتطون أسمائهم العائلية: ذا الجهل عن طريق معرفتهم الخاصة من أجل التحديث وعن طريق عرض استعدادهم الخاص للحكي، ومعرفتهم لعالم أكثر اتساع من أن يضعوه في حكاية. وهذا يعني أن ذلك يبرر عيوب نقل المذكرات: ليس لأنهم كانوا يجهلون العالم لكن رجال الماضي ما كانوا يعرفون كتابة كلمات عن حياتهم. لم يبحث هؤلاء المؤلفين عن أنفسهم لكتابة كلمات عن الماضي أو لمحاولة إعطاء معنى للمجرى العام للتاريخ. إنها الكلمات بنفسها التي انبثقت متحدية المحرمات الإيديولوجيات.

### ما وراء الحكاية العائلية : الذاكرة الحية للمقابلات

إن كان إدراج صورة أو سرد مفكك سيظهر – بين السطور أو بشكل ارتجالي – عمقاً غير متوقفاً لتاريخ الماضي العثماني في اليمن، فيبدو أن

بعض المؤلفين قد اختاروا بوضوح أن يرووا مقابلات عن خارج العائلة. ربما كانت أقل تعرضاً للشبهة من أجل إشراك الحكاية في الموضوع. تقدم المقابلات والكلمات الخارجة عنها حرية لا مثيل لها للحكاية. على الأقل، إنها تسمح بإدخال استكشاف ماضي تم إخفاؤه ببراعة في إطار عرض الهويات المتعلقة بالولادة، إن كانت محلية أو مشتركة أو عائلية.

## ضوضاء المذكرات و مصالحتها

تكشف مذكرات حسين محمد المقبل (١٩٢٥ - ؟؟؟؟) عن تنوع الخطاب حول الاحتلال العثماني التي راجت ما بين الثلاثينيات والخمسينيات وصعوبة تبني وضعية واضحة لهذا الماضي. ولد المقبل في يريم بوسط اليمن وهو متحدر من وسط متواضع: كان والده فلاح وفي نفس الوقت إماماً لمسجد القرية. وللخلاص من هذا فقد غير أقداره عن طريق التعليم وأصبح منذ ثورة ١٩٤٨ أحد أصغر أنصار حركة المعارضة ضد الإمامة. كان ذا عقلية مستقلة، ارتبط برشيد سنو، أستاذ لغة عربية ومدافع عن مفهوم العروبة قدم من بيروت أثناء أول بعثة يمنية في لبنان عام ١٩٤٨. باشر دراسته في القاهرة، سافر إلى الأردن وإلى ألمانيا الاتحادية حيث سيقابل زوجة المستقبل ذات الجنسية الألمانية. رغم مسار حياته العادي، إلا أن الإمام أحمد استدعاه للعمل في سفارة اليمن في القاهرة عام ١٩٦٠، الذين سيكون علامة على بداية عمله الدبلوماسي الذي أستمّر جيداً بعد ثورة ١٩٦٢.

بعيداً عن هذه الأجواء التي عاش الآباء فيها مع العثمانيين، كتب حسين المقبل للقارئ، وبما يرضي الحكاية، عن بعض العلاقات مع الأتراك التي كان قد قرأها أو سمعها والتي يبدوا أنها طغت على الخطاب المحيط بالجانب الإمامي كما القومية العربية. تضطرب المذكرات المنصبة على العثمانيين وتتشابك في ضوضاء متوالية. وهكذا فهو يتذكر الأستاذ الذي أرسله الإمام ليصلح طيش شبابه، كان اسمه حمود الدولة. كتب عنه: لقد كان شيعي متشدد وكان يمنع لبس الجلابية. كان يعتبر هذا الملبس ك (ملبس الزناة)، ويقول بأن هذه الأزرار التي على الأكمام (تعطي مظهر الطغاة الأتراك). وبالتأكيد ما كان ينقصه الخطاب القومي العربي الذي كان يسمعه غالباً من المتحدثين السوريين أو اللبنانيين أو العراقيين لإنعاش صورة الطغيان التركي: وهكذا يروي حسين المقبل أن الأساتذة الذين تخرجوا من العراق قد (جلبوا كتباً ضد الاستعمار والأتراك والديكتاتورية)؛ لقد استمع باهتمام للقائد جمال جميل (أحد الذين

سيلعبون دوراً مهماً في انقلاب ١٩٤٨) أثناء دورة تدريبية في الجيش، حينما كان يحكي (كيف أن العرب قاتلوا الأتراك).

لكن يتذكر حسين المقبل أن في نفس الوقت حكى له جمال جميل أن (الأتراك أنفسهم قاتلوا عبد الحميد) مستذكراً الحركة الدستورية والفتية التركية التي خلعت السلطان عام ١٩٠٩. نفهم جيداً أن استذكراً كهذا كان يتوجب استخدامه لتمرير رسالة ضمنية إلى ثوار المستقبل الشباب. كان هناك نفس التشابه مع رشيد سنو بين وضع اليمن تحت حكم آل حميد الدين ووضع سوريا في عصر (الاستعمار التركي).

لا يدهشنا معرفة أن حسين المقبل اتخذ على عاتقه هذه الثقافة المحيطة ضد الأتراك التي اكتسبها من (الطائفة الشيعية) كما من القوميين العرب، مع الفوارق التي يستطيع القوميون توضيحها. إن حكايته عن قصة حياة عبد الله العمري الذي كان مستشار ورئيس وزراء الإمام يحيى معبرة بما فيه الكفاية. يثبت المقبل أن هذه الشخصية (لم تكن الأحرار أبداً) لدرجة أنهم وضعوه في الحكومة المؤقتة عام ١٩٤٨ التي سبقت إعادة سيطرة الإمام أحمد على مقاليد الحكم. فإن كان قد قتل مع الإمام يحيى فذلك كان عن طريق (الخطأ). وتعود كفاءة هذه العلاقة السرية إلى والد عبد الله العمري، القاضي وشيخ الإسلام الحسين بن علي العمري. ويوضح المقبل أنه (كان مرجعاً لليمنيين كما للأتراك). شارك في المجلس الإداري للحكومة العثمانية في صنعاء وكان يعطي رأيه في العديد من المواضيع، ولاسيما في النزاعات. سمح القاضي الموهوب - خصوصاً في السياسة - لابنه (بمعرفة نظام المجلس الإداري التركي). لكننا فهمنا أن هدفه كان استخدام المصادر العثمانية لإعادة استخدامها جيداً ضد الإمبراطورية العثمانية. في الحقيقة اهتم المقبل بذكر أن القاضي كان سيرفض أن يلتحق ابنه بالمدرسة العسكرية في إسطنبول. ونخمن بأن الباعث لهذا الرفض كان لوضع حد لتوغل ابنه في النظام العثماني ليكرس خدماته قطعياً في خدمة اليمن. في الواقع، وتحت هذا المعنى، انتهى عبد الله العمري إلى عمل مهم: حكى حسين المقبل أن (تميز عبد الله في العمل السياسي ظهر حينما عمل على تقارب الحكومة العثمانية والإمام يحيى نحو صلح دعان).

إن التأويل الذي أعطاه لقصة حياة عبد الله العمري لهو في غاية البراعة. فبدون أن يلوي عنق العقيدة المشتركة للنظام الإمامي وللخطاب القومي العربي المتعلق بالمطالب المتميزة التي ألقاها اليمنيون في صلح دعان، قدم حسين المقبل الفترة العثمانية كمعمل لتجارب الصراع/الداخلي ضد السلطة الطاغية. فلنلاحظ الفقرة التي أخفتها حقيقة أن أحد أبناء عبد الله وهو محمد كان



بدوره أحد أهم موظفي الإمام أحمد بعد ١٩٤٨. وهو ما يبرر حقيقة أن العديد من الشخصيات استطاعت الولوج بدون مشاكل إلى عالم السياسة والإدارة في الحكومة اليمينية ما بعد الثورة وذلك رغم كل الروابط الضيقة التي استطاعوا عملها مع النظام الإمامي.

### ذاكرة مكتشفة. ذكريات عابر سبيل

ذُكر العزي صالح السنيدار كأحد أولئك الذين استدعوا بسرعة الحضور العثماني في طفولتهم. هو أيضا أُستدعى هذا اللقاء ارتجالا كي يعود إلى هذا الموضوع. في الحقيقة لقد حكى عن مقابلة حاسمة في حياته، إنها مقابلة محمد المحلوي (عالم دين وتاريخ ورياضيات وطبيب وأخيراً مطلع على ما يجري في الشرق والغرب). وقد اختار كما حسين المقبل أن يحكي بحرية عن هذه المقابلة الخارجة عن العائلة والتي أدت إلى إعطاء معنى متماسك لقصة حياته.

في هذه الأثناء، أدرج العزي صالح السنيدار تصوراً غريباً كلياً عن الحضور العثماني في اليمن. وعلي سبيل المصادفة، قابل محمد المحلوي الذي كان يناديه (الأب الروحي) عام ١٩٣٠. ساعدت الظروف المحلوي ليصبح أبا روحيا لهذا الشاب. لقد أخذ تحت جناحه، أخضع له التضاريس الصعبة لأفكاره وأغدق عليه بالمعلومات. يحكي صالح السنيدار هنا ذكريات لحكايات رواها معلمه بغزارة. علمنا أن المحلوي ولج مدرسة تركية على الأرجح أنها إحدى أولى المدارس التركية التي أنشئت في صنعاء في نهاية القرن التاسع عشر، قبل أن يتعلم على يد الحاخام الأكبر يحيى الأبيض، الذي وصفه بأنه (بحر حقيقي من المعرفة فيما يخص الديانة اليهودية والإسلامية [...]). لقد أعطى بلا جدل مرور المحلوي بالمدرسة التركية للتعليم على يد الحاخام قيمة لسيرة حياته. إنها تكشف عن انفتاح عقلية استثنائية بيدوا كأن التجربة التعليمية العثمانية قد أعدتها. لقد كان فتح مدارس عثمانية في اليمن بالنسبة له منعطفاً حاسماً في تاريخ اليمن. إن عقاب الفلكة كان بالنسبة لصالح السنيدار إحدى الوسائل التعليمية الخاصة بالمدارس التقليدية العربية، وكان غير معروف في المدارس التركية. في هذه الأثناء كانت المقاومة على أشدها. عندما عاد المحلوي حاملاً (دبلوم تركي) إلى منزله استقبله أبوه وأعمامه بضربه لأنه كان قد تجرأ و(درس في مدرسة تركية وصار بإمكانه قراءة جريدة تركية مطبوعة). نكاية لهذا، كان الشاب المحلوي سيقدر دخول الوسط العثماني في صنعاء: (كان يعرف زملاءه الأتراك وأبائهم. [...]) كان يتردد على الحلاق علي عبدا لله الكوكباني حيث كان العديد من الأتراك يفضلون الحلاقة هناك). إن الأتراك

الذين كان المحلوي مرتبطاً بهم أكثر كانوا من العثمانيين الذين ينادونهم (الأحرار) وكانوا يجتمعون حول مدير التلغراف والبريد، لقد كان (بيكباش). كانت الجمعية الصغيرة التي يديرها عنده متعودة على نقاش الفنون. كما كانوا يناقشون بالمثل انحرافات نظام عبد الحميد، السلطان العثماني، وسياسة الحكومة العثمانية في اليمن، الطاغية والمحترقة لليمنيين. بالنسبة إلى (بيكباش)، كانت تلك الجمعية (تعيد الخدمات لآل حميد الدين). يروي صالح السنيدار أن المحلوي كان حكيماً حين قطع كل اتصالاته رغم كل ذلك مع الأوضاع (المنحرفة) لاهوتياً عن دائرة العثمانيين الأحرار. لكن هذه الأوضاع لم تقلل من احترامه لدقة تحليلاتهم فيما يخص السياسة العثمانية في اليمن ورغبتهم في أن يروا فيها (الضمان المتحركة).

تمت إثارة جزئية تأثير العثمانيين الأحرار على المجتمع الصناعي الصغير الذي كان يهتم بمناقشة الحداثة والحكم الجيد ومكانة العرب في الإمبراطورية العثمانية للمرة الأولى في تفاصيل تتعارض مع رزاة الحكايات الأخرى. وكان حلاق عادية هي من كانت تستقبل الأفكار الآتية من الخارج ولنا أن نتخيل كيفية إعادة توزيعها على زبائن المدينة. حتى أن نقداً عميقاً لفوائد صلح دعان بالنسبة لليمنيين قد دار هناك في إحدى النقاشات. وناقشها أيضاً عصمت باشا (سيكون في المستقبل رئيس الجمهورية التركية) أتى أيضاً ليخلق بعد توقيع صلح دعان الذي شارك فيه كسكرتير: (لقد باعكم إمامكم بدون مقابل)، لقد صرخ حينها. لم يحدد صالح السنيدار إن كانت هذه الكلمة الجارحة التي ألقاها موظف تركي انضم مسبقاً إلى جمعية الاتحاد والترقي والتي بإمكاننا تخيل فائدة محاولتهم فصل اليمنيين عن مشاريع الإمام. لقد ضربت العودة إلى هذا الحديث على الجرح في الحكاية، الفكرة التي سيدافع عنها الإمام فيما بعد كنصر دبلوماسي إن لم يكن (استقلال) نالوه من العثمانيين عام ١٩١١. ونفهم من هذه الحكاية أنه من أجل الاستمرار في إخضاع اليمنيين مهما كان باستطاعة العثمانيين في عصر جمعية الاتحاد والترقي عمله، سيمضي في الحكاية حتى الوصول إلى حقيقة التاريخ اليمني... الذي وجد نفسه في الجانب العثماني.

بعيداً عن تحديد تأثير الثقافة السياسية والليبرالية العثمانية في العصر السابق لعام ١٩١٨، فقد سخر نفسه فيما بعد للإسهاب في ميزات القاضي راغب الذي أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية لدى الإمام يحيى. كان هذا العثماني القديم بحسب المؤلف يشكل جزءاً من أولئك الذين واجهوا - عن طريق الأفكار وليس عن طريق السلاح - النظام الإمامي. لقد وصفهم (بالليبراليين) -

كلمة حاولنا ترجمتها إلى (الأحرار)، إذا أرجعناها إلى (اليمنيين الأحرار). يذكر صالح السنيدار أن القاضي راغب كان قد تميز بالنشاط في الحديدية حيث كان متصرفاً. كان يتكلم الفرنسية والإنجليزية بطلاقة بالإضافة إلى العربية والتركية، وكان لديه ما يكفي لمقاومة (الحساد الذين كانوا يلقون بشباك الوشاية ضده لدى الإمام). يملك بعض العلوم الإنسانية ومقداراً كبيراً من الثقافة ترجمت إلى مهارة سياسية حقيقية، وكما يبدو فقد كانت تلك أدوات قيمة كي يفرض نفسه على المجتمع اليمني. وهكذا يحكي السنيدار أن القاضي (اقترب من الناس وفتح منزله كل جمعة، كان الناس يأتون للسلام عليه، فكان يستقبلهم بكل حفاوة وبأفضل الطرق. تقرب من زواره بعرض مواهبه في الحساب والتاريخ. فارتبط بعدد كبير من الشخصيات وكان النصير الذي حينما يأتي الناس يشكون إليه من أي مشكلة يقوم بعمل ما باستطاعته ليظهر بأنه مفيد). وفي مواجهة الإمام يحيى سمح له وضعه كخبير بأن يكلم الإمام (بكل صراحة) حتى وإن كان الكلام عن أبنائه وعن إدارتهم الفاسدة. وحينما لا يتفق مع الإمام (ينهض ويتركه في غضب ويرفض تنفيذ ما طلب منه ويبقى في منزله حتى يرسل له الإمام من يراضيه). وكان الإمام (مدين له من أجل حل المشاكل الخارجية) وقد أعطاه المنزل الذي كان هو نفسه يسكن فيه قبل أن يسكن في القصر الجديد.

إن تفاصيل علاقة القاضي راغب مع الإمام تترك صورة عن فكرة أن الإمام كان بالتأكيد قويا فيما يخص التيارات المختلفة التي كانت قد مرت عبر الإدارة العثمانية قبل ١٩١٨. بإمكاننا وبدون مجازفة الإبانة أنه أيضاً استطاع البحث عن الشرعية التي اكتسبها من الحاشية (الليبرالية) للإدارة العثمانية القديمة لتأكيد أفضل لسلطته على شعب كان يدين بالتبعية للإمبراطورية العثمانية. كان نموذج الثقافة العثمانية ينتشر ويكون ضماناً للانفتاح وللكفاءة وللحدثة. بالنسبة للإمام (الذي أصبح خليفة في محل الخليفة العثماني) كان يتوجب على نصائح القاضي أن تجنبه مصير السلطان عبد الحميد. في الحقيقة لقد منح السنيدار القاضي نصائح ظهر فيها تغيير السلطتين بوضوح: (يا مولاي! حرروا [السجناء]، لأن سجنهم سيثير انتباه الناس، وتذكروا أن مشكلة السلطان عبد الحميد بدأت ببعض الأشخاص، ثم توسعت).

أثناء كتابته لذكريات المعركة من أجل حرية اليمن في إطار تسلسل أحداث الليبرالية العثمانية – المتصلة كلقريميد، عبر صورة ودور القاضي راغب - غير صالح السنيدار بتعمق الصورة المرسومة في اليمن عن الماضي العثماني. سنستطيع الإشارة إلى أي مدى تعارضت ذاكرة المؤلف – التي فقدت حينما يحكي عن تاريخ شبابه المحض – بغرابة مع تلك الذاكرة التي تمتد في

عدد كبير من التفاصيل منذ اللحظة التي كتب فيها قصة حياة محمد المحلوي وأعماله وتحركاته: كما لو أن ماضي المحلوي قد حل محل ماضي المؤلف. بإمكان القارئ شرعاً التساؤل حول ميزة هذه الذاكرة المستحضرة وحول الجزء الذي يخص إعادة بناء الماضي. لكن بقي أن يكون لهذه الحكاية – في اتساعها السردي والوصفي – الكفاءة باقتراح رؤية حقيقية للاختلال في حقل السيرة الذاتية – والحقل التاريخي – لليمن المعاصر.

## الخاتمة

بترت شرعية الماضي المناهض للأتراك من قبل أسرة حميد الدين الذاكرة بعمق، وذلك عن طريق الخطاب القومي العربي. تلك الذاكرة التي استطاع اليمينيون المتطوعون في العملية الإصلاحية ثم الثورية للحكومة الحديثة تملكها يوماً هذا. ومن بين مؤلفي المذكرات الذين قدمتهم هنا، لا يبدو أن أحداً جرؤ على الاعتراف صراحة بتسلسل مباشر للأحداث بين التجربة العثمانية التي عاشها آبائهم وبين معركتهم من أجل تحديث البلد. وبدون أدنى شك فإن الدخول في تفاصيل انتماءاتهم المحلية والجماعية كانت ستصعب مهمتهم في محاولتهم توضيح مسيرة حياتهم في إطار وطني.

ربما بحث مؤلفو (التاريخ الذاتي) عن طريق يوصلهم لفاصلة الكتابة القومية العربية وذلك بأسلوب منزاح مبالغ فيه بغية التعبير بإخلاص عن هويتهم الوطنية الخالصة. فرغم واقعية التجربة في المجال التربوي – وهو السلاح الحقيقي والشرعي في معركتهم نحو التحديث – إلا أنه يبدو أنهم قد حاولوا بسهولة متناهية ربط ما عاشوه بما بناه آخرون من سوريا ولبنان والقاهرة... إنهم الجيل السابق. نكتشف في حكايات طفولتهم أو حياة آبائهم نفس الحاجة إلى التميز في مواجهة هؤلاء، وذلك عن طريق صمت السرد في مواجهة التأثير الذي استطاع العثمانيون لعبه، عبر هذا الجيل السابق، من خلال توزيع ثقافة جديدة وحديثة.

بيد أنه صعبت فجأة إلى سطح هذه الحكايات تفاصيل واقع آخر تماثل الواقع الذي فرضه الخطاب. عرف العثمانيون – العابرون إلى الحداثة – كيفية إيقاظ الضمائر وخلق (أفاق انتظار) استطاع الجيل التالي بلوغها. يُعبر أدب المذكرات اليمني عن فشل القومية المتجانسة في رغبته بكتابة تاريخ الأمة. وهذا هو ما قام به – ولكن برؤية أقل في مشهد النشر – التاريخ الجماعي والمناطق والمحلي. ويبدو أن فقدان الإيديولوجية القومية العربية لسرعتها

يومنا هذا في اليمن قد فتح آفاقاً جديدة على تاريخ الحضور العثماني في اليمن. ويشهد على ذلك ترميم منزل القاضي راغب - ما زال يرمم - والذي سيكون متحفاً للقرن العشرين. من جهة أخرى قد يصاحب هذه الحركة تعميم المرجعيات الإسلامية. إن الإدارة الحديثة، في صنعاء، للندوة الأولى التي جمعت علماء تاريخ أتراك ويمنيين حول الماضي المشترك للبلدين، تحت اسم: (العلاقات التركية اليمنية: مناقشة حول إقصاء تاريخي)، قد تركت توقعات نحو ذلك.